# مصر والمونديال وثقافة المجتمع

د. وحيد عبد المجيد

مدير مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية

تُعد أنماط القيم والسلوك المرتبطة بالألعاب الرياضية جزءًا من ثقافة المجتمع. ولكن كرة القدم تُمثل المكون الأكبر في هذه الثقافة في كثير من بلدان العالم، ومن بينها مصر. وثقافة كرة القدم، بهذا المعنى، أحد الأنساق الثقافية الفرعية في المجتمع. وهي أوسع نطاقًا من ثقافة تشجيع فريق الكرة الذي يؤازره كل شخص، ومن الثقافة الرياضية بوجه عام.

توجد تأثيرات متبادلة بين الأنساق الفرعية لثقافات المجتمعات. ولذا تتأثر ثقافة كرة القدم، وفق هذا المعنى، بجوانب أخرى في الثقافة المجتمعية، مثلما تؤثر فيها. ولذا تكتسب دراسة نظرة الناس إلى كرة القدم، وكيفية تعاملهم معها، أهمية معتبرة في السعي إلى فهم بعض التحولات التي تحدث في ثقافة المجتمع. وتزداد هذه الأهمية في المجتمعات التي تهتم نسبة غالبة من سكانها بكرة القدم.

وتوفر المسابقات التي تشارك فيها المنتخبات الوطنية للبلدان المختلفة، والمباريات التي تخوضها فيها، حقلًا مناسبًا لهذه الدراسة، بخلاف المسابقات المحلية أو بدرجة أعلى بكثير منها. في المسابقات المحلية مُتسع لدراسة جوانب معينة من ثقافة كرة القدم، وخاصة تلك التي تتعلق بأنماط التشجيع، ومستويات التعصب في هذا المجال، وآثار الارتفاع المتزايد في دخول اللاعبين، والمديرين الفنيين والأطقم المعاونة لهم، ومديري الكرة، فضلًا عن الوسطاء والسماسرة، وخاصة في الفرق التي تنتمي إلى أندية كبيرة أو ثرية، على الحراك الاجتماعي، ومن ثم تغير نظرة المجتمع إلى لاعب الكرة، مثلما حدث في مجال الفن أيضًا.

المسابقات التي تشارك فيها المنتخبات الوطنية، إذن، هي المقياس الأكثر دلالة على حالة ثقافة كرة القدم في المجتمع بمعناها الواسع، والتحولات التي تحدث فيها من مرحلة إلى أخرى. ففي هذه المسابقات، تتجلى النزعة الوطنية للشعوب التي تهتم نسبة كبيرة من سكانها بكرة القدم، كون المنتخبات تلعب بأسماء دولها، ويُعزف النشيد الوطني للدولتين في بداية كل مباراة بين منتخبين، ويكون علمهما حاضرًا في أيدي الجمهور الذي يؤازر كلًا منهما. كما تتجلى نزعات وميول وتعبيرات عن قيم وأنماط سلوك أخرى في مباريات المنتخبات الوطنية، إلى جانب هذه النزعة. ومن الطبيعي أن تكون المشاركة في المونديال هي الأكثر دلالة في هذا المجال، لكونه المسابقة الأكبر في العالم على الإطلاق.

### أولًا: موقع النضال الوطني في ثقافة كرة القدم

تعد كرة القدم أحد أشكال التعبير عن الهوية الثقافية في كثير من المجتمعات. وكان لمشاركة مصر في مونديال إيطاليا عام ١٩٣٤ معنى يتجاوز التنافس في أكبر المسابقات الرياضية في العالم. دعمت تلك المشاركة شعور المصريين بأن نضالهم الوطني ضد الاحتلال البريطاني لم يذهب سُدًى. وأعطت معنى ربما لم يكن مسبوقًا للاستقلال الجزئي، أو المنقوص، الذي حصلوا عليه عقب ثورتهم الشعبية الواسعة عام ١٩١٩، بموجب ما أُطلق عليه تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ الذي أنهى الحماية البريطانية التي فُرضت على مصر منذ ديسمبر ١٩١٤.

شاركت مصر في ذلك المونديال ممثلة للقارتين الإفريقية والآسيوية اللتين كانت معظم بلدانهما خاضعة للاستعمار.

وكانت الدولة الأولى التي تشارك فيه من القارتين. كان المونديال في بدايته. وكانت دورة ١٩٣٤ هي الثانية في هذا المونديال الذي بدأ عام ١٩٣٠. واقتصرت المشاركة في دورته الأولى في الأوروجواي على دول أوروبية وأمريكية (١٣) دولة فقط منها أربع أوروبية، واثنان من أمريكا الشمالية، وسبع من أمريكا الجنوبية)، حيث حال بُعد المسافة دون مشاركة كثير من الدول الأوروبية في هذا المونديال، مثلما أدى السبب نفسه إلى عدم قدرة معظم دول أمريكا الشمالية والجنوبية على المشاركة في مونديال إيطاليا عام ١٩٣٤.

ولذا كانت مشاركة مصر في مونديال ١٩٣٤ حدثًا تاريخيًا بالنسبة إلى شعبها، إذ كان منتخبها على قدم المساواة مع منتخبات ١٢ دولة أوروبية بعضها دول كبرى مثل ألمانيا وفرنسا وإيطاليا وإسبانيا، فضلًا عن المجر وبلجيكا وهولندا وتشيكوسلوفاكيا والسويد والنمسا وسويسرا ورومانيا (لم تكن بريطانيا قد انضمت إلى الاتحاد الدولي لكرة القدم حينئذ لأسباب ليس هنا محلها)، إلى جانب الولايات المتحدة والبرازيل والأرجنتين.

عززت مشاركة المنتخب المصري في تلك الفترة المبكرة جدًا من تاريخ المونديال، إلى جانب هذه الدول، روح النضال الوطني الذي كان قد تصاعد مجددًا منذ عام ١٩٣٠. وعندما شارك المنتخب المصري في ذلك المونديال، كان النضال الوطني يقترب من ذروة جديدة بلغها بعد أقل من عام على انتهائه في انتفاضة ١٩٣٥ التي أفاض مؤرخون، وكُتاب مهتمون بالتاريخ، في تفاصيلها. وفرض ذلك على بريطانيا تقديم تنازلات جديدة في معاهدة ١٩٣٦، التي لم تحقق بدورها الاستقلال الكامل (الناجز وفق التعبير الشائع في ذلك الوقت)، ولم تضع بالتالي نهاية للنضال الوطني الذي تواصل بعدها.

كانت كرة القدم في تلك المرحلة أداة من أدوات النضال الوطني، وليست رمزًا من رموزه فقط. هكذا نظر إليها كثيرون في مصر، كما في بلدان أخرى خاضت نضالًا وطنيًا من أجل التحرر من الاستعمار.

ومن المفارقات التاريخية المثيرة للتأمل في هذا السياق أن الدول المستعمِرة (بكسر الميم)، وفي مقدمتها بريطانيا وفرنسا، لعبت الدور الأكبر في إدخال الألعاب الرياضية الحديثة، وفي مقدمتها لعبة كرة القدم إلى البلدان الخاضعة لاحتلالها، فإذ بها تتحول إلى أداة للنضال سعيًا إلى التحرر منها، ورمزًا من رموز الهوية الوطنية التي كان هذا النضال يهدف إلى تعزيزها، مثلما كانت هي دافعًا له، في آن معًا.

كان تأسيس النادي الأهلي عام ١٩٠٧، على سبيل المثال، التعبير الرياضي عن الوطنية المصرية، مثلما كان بنك مصر التعبير المصرفي عنها، وشركة مصر للغزل والنسيج أحد أهم أشكال التعبير عنها في مجال الصناعة. يعرف المطلعون على تاريخ هذا النادي دور بعض قادة الحزب الوطني (حزب مصطفى كامل ومحمد فريد) في تأسيسه كناد للشباب الوطنيين يمارسون الرياضة فيه ويقضون بعضًا من أوقاتهم. ولم يمض عامان على إعلان تأسيسه، حتى أنشأ فيه أول ملعب لكرة القدم، وتبعه تكوين أول فريق لهذه اللعبة التي كانت الأولى ذات الطابع الجماعي فيه، بالتزامن تقريبًا مع ثلاثة ألعاب فردية هي التنس، والبلياردو، والجمباز.

وكان محمود مختار التتش أحد أبرز نجوم فريق كرة القدم بالنادي الأهلي، والذي يُطلق اسمه على ملعبه القديم في الجزيرة، هو قائد المنتخب الوطني المصري الذي شارك في مونديال ١٩٣٤. وحظي النادي الأهلي برعاية عدد من قادة الحركة الوطنية قبل ثورة ١٩١٩، وبعدها، وتولى أحدهم (عبد الخالق ثروت) رئاسته بين عامي ١٩١٦ و١٩٢٢. كما حظي النادي بدعم الزعيم سعد زغلول، لأنه كان محبًا له ومُقدِّرًا لدوره الوطني، وليس فقط لأنه عُين رئيسًا للجمعية العمومية الأولى. فقد كان تعيينه في ذلك المنصب الشرفي بصفته ناظرًا للمعارف في ذلك الوقت الذي سعى فيه مؤسسو النادي إلى توطيد العلاقة مع نظارة (وزارة) المعارف، على أساس أن جمع شمل طلبة المدارس العليا وخريجيها كان في مقدمة أهدافهم.

وكان لأندية رياضية أخرى، وفرقها لكرة القدم، دور وطني لا يقل أهمية خارج القاهرة، وخاصة نادي الاتحاد الذي أنشأ في الإسكندرية عام ١٩٠٦، وأصبح اسمه الاتحاد الوطني عام ١٩٠٨ بُعيد وفاة الزعيم مصطفى كامل ولفترة بعدها، والنادي المصري الذي أُنشأ في بورسعيد عام ١٩٢٠ عقب ثورة ١٩١٩، وكان أول ناد مصري وسط عدد من أندية الجاليات الأجنبية في هذه المحافظة.

وتكمن المفارقة، هنا، في أن فكرة «تمدين الشعوب» التي استُخدمت لتبرير الاستعمار تضمنت استخدام أدوات معينة لتحقيق هذا «التمدين». وكانت كرة القدم إحدى هذه الأدوات وفق نظرية البروفيسور بيتر إليجي أستاذ التاريخ في جامعة ميتشجان. وحسب هذه النظرية، استُخدمت كرة القدم أداة لتعليم الشعوب الخاضعة للاستعمار فضائل الحضارة الغربية، والقيم الرأسمالية تحقيقًا لـ«رسالة الرجل

الأبيض»، إلى جانب استغلال التنافس الذي تنطوي عليه لتفريغ الاحتقان المترتب على الخضوع لاحتلال، أو شيء من هذا الاحتقان، وكذلك ترويج السلع المرتبطة بهذه اللعبة.

وإذا صحت هذه النظرية، التي تتوفر دلائل عدة على سلامتها في بعض جوانبها على الأقل، فهذا يعني أن «السحر انقلب على الساحر» عندما أضافت كرة القدم بُعدًا جديدًا إلى الشعور المتصاعد في تلك المرحلة بالهوية الوطنية، وصارت أداة من أدوات التعبير عن هذه الهوية.

ولذا لم تكن مصر وحدها التي أدت كرة القدم هذا الدور فيها، إذ نجد مثله في بلدان أخرى عربية، وغيرها، في تلك المرحلة وبعدها. كما لم تصبح كرة القدم جزءًا من المكون الوطني للثقافة المجتمعية في البلدان التي خضعت للاحتلال البريطاني فقط، إذ حدث مثل ذلك في بلدان كانت خاضعة لاحتلال فرنسي كان أشد قسوة لأنه استهدف فرنسة الشعوب التي أخضعها لسيطرته لُغويًا وثقافيًا واجتماعيًا، وتذويب الشعور بالهوية الوطنية، وتُعد الجزائر من أبرز هذه البلدان. فقد قامت جبهة التحرير الوطني فيها بتأسيس أول منتخب جزائري حمل اسم الوطن وعلمه، رغم أن معظم لاعبيه كانوا يلعبون في فرق كرة قدم فرنسية. فكان الفرنسيون هم أول من وضعوا تقليد استعانة فرق كرة قدم في أوروبا، ثم في العالم كله، بلاعبين أجانب أصبح كثير منهم أبرز نجوم اللعبة اليوم، وصار بعضهم أركانًا ليس فقط في فرق انتقلوا إليها من بلادهم، ولكن في بعض المنتخبات الوطنية في دول اكتسبوا جنسيتها أيضًا.

وكان لجوء جبهة التحرير الوطني في الجزائر إلى استخدام كرة القدم أداة للنضال الوطني أحد عوامل نجاحها، لأن المنتخب الذي كونته حمل اسم الوطن وعلمه ليس فقط في الداخل، ولكن أيضًا في فرنسا، وعلى المستوى الدولي. وكانت هذه بداية انتباه مثقفين، وسياسيين، ومواطنين فرنسيين أصحاب ضمير إلى الإجرام الذي انطوى عليه احتلال الجزائر.

**ثانيًا: ازدياد المكونين الاقتصادي والديني في ثقافة كرة القدم**

كانت محورية المكون الوطني في ثقافة كرة القدم في مصر، ومازالت، أهم الجوانب الإيجابية لتأثرها بالأنماط المتغيرة للثقافة المجتمعية، وتأثيرها فيها. ويبدو، في المقابل، ازدياد المكونين الاقتصادي والديني في هذه الثقافة أهم الجوانب السلبية.

لم يكن ممكنًا أن تبقى مصر خارج التحول الكبير الذي جعل كرة القدم صناعة وتجارة لا حدود لهما في العالم، وأدى إلى ازدياد أهمية «البيزنس» فيها على حساب الرياضة. أدى هذا التحول إلى تراجع قيمة الانتماء إلى ناد أو فريق يرتبط اللاعب به، وأضعف مقومات التنافس الطبيعي الذي يعتمد على القدرات والمهارات والالتزام، بعد أن قوّض تكافؤ الفرص بين الأندية الثرية والفقيرة، وبين الأندية الأكثر ثراءً وغيرها.

كما أحدث حراكًا اجتماعيًّا غير طبيعي ينتقل بمقتضاه لاعبون طبقيًا من أسفل قاع المجتمع إلى إحدى أعلى قممه في غضون سنوات قليلة، لمجرد أنهم يجيدون اللعب، ويجدون فرصة في أحد الأندية الثرية، في الوقت الذي قد يكون هناك من يملكون مهارات أفضل، ولكنهم لا يعرفون طريقًا إلى أحد هذه الأندية. وأسهم هذا النوع من الحراك في تفاقم حالة التفاوت الاجتماعي الصارخ الذي تفيد أكثر الدراسات قوة في منهجيتها وتوثيقها إلى أنه غير مسبوق (دراسة توماس بيكيتي المنشورة عام ٢٠١٤ في كتابه عن رأسمالية القرن الواحد والعشرين).

وترتبط «بزنسة» كرة القدم على هذا النحو ببلوغها أعلى مراحل العولمة وأكثرها تجذرًا، وهي التي كان «المونديال»، والاتحاد الذي ينظمه «الفيفا»، أحد أهم إرهاصاتها المبكرة. ويثير ذلك سؤالًا عن تأثير هذا المستوى من عولمة كرة القدم على المكون الوطني في الثقافة المجتمعية. ولأن هذا التأثير يحدث ببطء، ويتراكم عبر مدى زمني غير قصير، يصح أن يكون السؤال المتعلق به على «أجندة» البحث العلمي في الفترة المقبلة، لرصد تطورات تستدعي التأمل، ومنها على سبيل المثال تشجيع فرق كرة قدم أجنبية، والتعصب لبعضها أحيانًا.

ورغم أن هذه الظاهرة توسعت بوضوح في مصر، بعد تألق اللاعب المصري محمد صلاح في صفوف فريق ليفربول الإنجليزي، فقد بدأت قبل ذلك، حيث يُلاحظ منذ سنوات اتجاه أعداد متزايدة من محبي كرة القدم إلى تشجيع فرق أندية لا وجود للاعبين مصريين فيها، وخاصة فريقي برشلونة وريال مدريد، بل تكوين رابطتين غير رسميتين لمشجيعهما أيضًا. وينطوي هذا التحول على بُعد قد يكون أثره أكبر على المكون الوطني في ثقافة كرة القدم، وهو تشجيع منتخبات أجنبية في مسابقات لا يشارك فيها المنتخب المصري، على النحو الذي لوحظ في مونديال ٢٠١٤ حين آزر بعض مشاهديه في مصر منتخبات أخرى، وكما سيحدث في بلدان

عدة لا تشارك منتخباتها في مونديال ٢٠١٨، بعد أن ظهرت مقدماته في مرحلة التصفيات المؤهلة لهذا المونديال.

وإذا كان ازدياد المكون الاقتصادي في كرة القدم، وأثره في ثقافتها المجتمعية، ظاهرًا منذ سنوات، فقد بدأ مُكون ديني (أو بالأحرى يُنسب إلى الدين) في الظهور أخيرًا في ظل التألق المتزايد للاعب محمد صلاح. فثمة ما يدل على اقتران الولع الشديد بهذا اللاعب بشيء من التعصب الديني يتجلى في اعتقاد بعض المولعين به، وربما تمنيهم، أن يكون تألقه دافعًا إلى انتشار الإسلام في بريطانيا وأوروبا. وحفلت مواقع التواصل الاجتماعي، وخاصة «فيس بوك»، في الأشهر الخمسة الأولى من عام ٢٠١٨، وحتى كتابة هذه الورقة، بمشاركات تعبر عن هذا المعنى. في إحداها، على سبيل المثال، أخذت صورة يظهر فيها المدير الفني لمنتخب ليفربول يورجن كلوب متحدثًا مع صلاح، وهو يكاد أن يحتضنه، وكتبت عليها ما يلي: (كلوب: وحياة مكة لو كسبنا البطولة دي لنجيب الفريق كله ونيجي نصلي العيد عندكم). ويعرف المتابعون أن المقصود بمكة، هنا، ابنة صلاح التي تحمل هذا الاسم.

ولا يقتصر الأمر على هذا النوع من المشاركات التي تعبر عن أمنيات دفينة wishful thinking يفكر فيها بعض من شاركوا بها، بل يمتد إلى تقديم «معلومات» عن مواطنين بريطانيين اعتنقوا الإسلام حبًا في صلاح، بدون ذكر أي مصدر، وبلا أي نوع من التوثيق.

ولا يعرف من يفكرون بهذه الطريقة أن صلاح ليس أول لاعب مسلم حظي بإعجاب واسع في بلد أوروبي، وتعلق به جمهور فريق كبير في هذا البلد، كان الولع باللاعب الجزائري الأصل زين الدين زيدان أكبر، وأوسع نطاقًا ومازال كثير من الأوروبيين مولعين به كمدير فني أيضًا. حمل زيدان كأس العالم الوحيدة التي أحرزتها فرنسا في تاريخها، وقادها إلى بطولة كأس الأمم الأوروبية أيضًا، وحصل عام ٢٠٠٠على لقب أفضل لاعب كرة قدم في العالم، وليس في دولة واحدة فقط، ورغم هذا كله، لم يتحول أحد إلى الإسلام إعجابا بسببه.

وحب الناس لدينهم أمر محمود بطبيعة الحال. ولكن التعصب له مرذول، وخاصة عندما يقترن بميل تبشيري على هذا النحو، وينطوي بالتالي على نظرة سلبية إلى أصحاب الأديان الأخرى، أو تصور أن عليهم اعتناق الإسلام لكي يصبحوا مؤمنين. ويعني ذلك عدم إدراك أن لكل دين إيمانه، مثلما يدل على خلط بين الدين والنجاح الذي يعتمد على مقومات من أهمها إرساء مبدأ المواطنة الكاملة في المجتمع الذي ينجح الشخص فيه، بحيث يكون لكل المواطنين حقوق متساوية لتحقيق أنفسهم.

وما نلاحظه، هنا، أن هذا الميل إلى «تديين» كرة القدم ليس جديدًا تمامًا، إذ نجد ما يدل عليه في مناسبات سابقة. وكان أكثرها فجاجة حديث مدير فني سابق للمنتخب المصري عن معايير اختيار اللاعبين عشية مسابقة كأس الأمم الإفريقية عام ٢٠١٠. فبعد أن قال إن السلوك القويم أساس في اختيار لاعبي المنتخب، وهو ما لا يُختلف عليه في حال اعتباره مكملًا للمعايير الموضوعية المتعلقة بالقدرات والإمكانات اللازمة لحسن الأداء، أضاف ما معناه أن هذا السلوك يعني لديه أن يكون اللاعبون الذين يرتدون قميص المنتخب على علاقة طيبة بربهم!

ولم يكن بلا دلالة مرور حديثه ذاك بدون ردود فعل قوية إزاء موقف مدير فني نصَّب نفسه حكمًا على علاقة اللاعبين بربهم، وحكم على كل منهم على أساس ديني، ووجه رسالة خاطئة ومؤذية إلى الشباب مفادها أن في إمكانهم الاستغناء بطقوس دينية شكلية عن المقومات الحقيقية التي ينبغي أن تتوفر لديهم في سعيهم إلى تحقيق أنفسهم، سواء في ملاعب كرة القدم، أو غيرها جامعات كانت أو مواقع عمل متنوعة.

لم يلفت توجه خطير إلى هذا الحد إلا انتباه نفر قليل نبه بعضهم إلى مغبته، في حينه ولكن تنبيههم ذهب أدراج الرياح ولم يدرك من كان عليهم تصحيح خطأ كبير من هذا النوع مدى خطره، وفي مقدمتهم الاتحاد المصري لكرة القدم وقد كان هذا دالًا على استعداد لقبول توسع المكون الديني في ثقافة اللعبة الأكثر شعبية، على نحو يسهم في تفسير التطلع الراهن لأن يكون تألق صلاح دافعًا إلى انتشار الإسلام.

أما هذا التطلع نفسه، وما ينطوي عليه من خلط واضح بين الرياضة والدين، فهو دال على مدى الحاجة إلى تحديث المنظومة المجتمعية–السياسية، والقيم السائدة فيها، لكي ينشأ المصريون على أن العمل الجاد هو الطريق إلى الترقي بغض النظر عن الأصل أو الجنس، أو الدين أو العقيدة.